الشرور وتسكن إليه النفس عند الرضا والسرور، وأمرٌ آخَرُ ذكروه وهو أن كثرة تلقِّيهم آياتِ هذا القرآن المُعْجِر ونزوله بينهم كل حين بما يبهرهم ويأخذ بمجامح قلوبهم صغَّر قيمة شعرهم في أعينهم، واستخسُّوا معانيَهم وأسلوبهم بالإضافة إلى معانيه وأسلوبهم، فهبطت قوة شعرهم عما كانت عليه، ومثَّلوا لذلك بقوة شعر حسان في الجاهلية، ولينِهِ في الإسلام، وشموخ شعر أمية بن أبي الصَّلْتِ في الجاهلية، واستخذائه في الإسلام لما كان لحسده لرسول الله (ﷺ) وأكبر من ذلك أن لبيداً العامري، وهو من أفحل شعراء الجاهلية عندما انقطع في حفظ القرآن ومدارسته انقطع عن قول الشعر في الإسلام، ويقولون: إنَّ من لم يتعرض لهذا الإفحام والإبهار من أعراب البوادي بقي شعره إلا قليلٌ على غرار شعر الجاهلية، من أمثال: الحطيئة وكعب بن زهير.

وكل هذا الكلام وجيه ومقبول في جملته، ولكن كثيراً من أهل العلم والنقد من المتقدمين والمتأخرين، يرون أن بعضاً مما يُستضعَف من شعر مكة والمدينة والطائف مدسوس عليهم لأغراض دينية وفكاهية، وللقرآن وفصاحة حديث النبي وخُطبه أثَرٌ عظيمٌ في ترقيق شعر المخضرمين بعامة، وشعر أصحابه بخاصة، فقد كثُر في شعرهم استعمال ألفاظ القرآن وأساليبه وتشبيهاته وتوليد المعاني من العقائد الإسلامية، كالصَّلاة والزكاة والصيام والجنة والنار والثواب والعقاب والبعث والنشور وأسماء كثيرة من الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين.

خُطبةُ حجَّة الوَداع

خُطبةُ حَجَّة الوَداع مشهورةٌ في كثير من كتب الحديث والسيرة النبوية، منها: صحيحُ البُخاري، وصحيحُ مُسلم، ومُسند احمد، وزاد المعاد لابن قيم الجوزية، والسيرة النبوية للندوي، وغير ذلك كثير.

وهذا نصُّ الخُطبة التي خَطَبها (ﷺ) في أوسَط أيَّام التَّشْرِيقِ:

((أيُّها الناسُ! هل تدرون في أيِّ شهرٍ انتم، وفي أيٍّ يوم انتم، وفي أيٍّ بلدٍ أنتُمْ؟ فقالوا: في يومٍ حرامٍ، وبلدٍ حرامٍ، وشهر حرامٍ، قال: فإن دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم حرامٌ عليكم، كحُرْمة يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، وفي بلدِكم هذا، إلى يومٍ تلقَونَه، ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا، ألا لا تظلِموا، ألا لا تظلِموا، ألا لا تظلِموا، ألا إنَّه لا يحِلُّ مالُ امريء مُسلمٍ إلا بطيب نفسٍ منهُ، ألا! وأنَّ كلَّ دمٍ ومالٍ ومأثَرَةٍ كانت في الجاهلية تحتَ قدمي هذه، إلى يوم القيامة، وأن أوَّل دمٍ يوضَعُ دمُ ربيعةَ بن الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضَعا في بني سعد فقتلته هذيلٌ، ألا وأنَّ كلَّ ربا في الجاهلية موضوعٌ، وان اللهَ عزَّ وجلَّ قَضَى أن أوَّل رباً يوضَعُ ربا العباس بن عبد المطلب، لكم رؤوس أموالِكم لا تظلمون ولا تظلمون، ألا! وان الزمانَ قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض، ثم قرأ:(**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ)** ألا لا ترجعوا بعدي كُفَّاراً يضرِبُ بعضَكُمْ برقابِ بعضٍ، ألا! إنَّ الشيطانَ قد أيس أن يَعْبُدَه المصلُّون، ولكنَّه في التحريش بينكم، واتَّقوا الله في النساء، فإنهنَّ عندكم عَوَانٍ لا يملِكْنَ لأنْفُسِهنَّ شيئاً، وأن لهنَّ عليكم حقا، ولكم عليهن حقَّاً، ألا يُوطِئْنَ فُرُشَكَمْ أحدا غيرَكم، ولا يأذنَّ في بيوتكم لأحَدٍ تكرهونَهُ، فإن خِفْتُم نشوزَهُنَّ فعظوهُنَّ، واهجروهُنَّ في المضاجع، واضربوهُنَّ ضَرْبَاً غيرَ مُبْرِحٍ،

ولهُنَّ رزقُهنَّ وكِسْوتُهنَّ بالمعروف، وإنما أخذتموهُنَّ بأمانة الله، واستحللتُمْ فُرُوجَهُنَّ بكلمة الله عزَّ وجلَّ، ألا ومن كانت عنده أمانةٌ فليؤدِّها إلى من أئتمَنَه عليها، وبسط يديه، وقال: ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ ثم قال: لِيُبْلِغِ الشاهِدَ الغائِبَ، فإنَّه رُبَّ مبلَّغ اسعد من سامِعٍ)).

كعب بن زهير

أسلم بُجير بن أبي سلمى المزني، فاشتد عليه أهلُه، وكان كعبُ بن زهير وهو أخوه لأبيه وأمه– شديدا عليه، فلقِيَ بجيرٌ النبي محمد (ﷺ) مهاجراً، فأرسل إليه كعبُ بن زهير:

ألا أبلغا عني بُجيراً رسالةً ... فهلْ لك فيما قُلتُ بالخَيف هَلْ لَكَا

شَرِبْتَ مَعَ المَأْمونِ كَأْساً رَوِيّةً ... فَأَنْهَلَكَ المأمون منها وعَلَّكا

وَخَالَفْتَ أسْبَابَ الهُدَى واتَّبَعْتَهُ ... عَلَى أيِّ شيءٍ ويبَ(١) غَيْرِك دَلَّكا

على خُلُقٍ لم تُلْفِ أمَّاً ولا أَبَاً ... عليه، ولم تُدْرك عليه أخاً لَكَا

وكانت قريشٌ تسمِّي الرسول محمد (ﷺ) المأمونَ والأمينَ، فلمَّا بلغتْ هذه الأبياتُ بُجيراً أنشدها النبيَّ (ﷺ)، فقال: صدق، أنا المأمون وإنَّه لكاذبٌ، قال اجلْ لم يُلْف أباه ولا أمه على الإسلام.

(١) ويب: كلمة مثل ويل وويح وويس. غير أن لكل كلمة منها مقاما تستعمل فيه.

فأجابه بجير:

مَنْ مبلغٌ كَعْبَاً فهلْ لكَ في الَّتي ... تلومُ عليها باطِلاً وهو أحْزمُ

إلى اللهِ لا العُزَّى ولا اللاتِ وحدَه ... فتَنْجو إذا كانَ النَّجَاءُ وتَسْلَمُ

لَدَى يومِ لا ينجُو وليسَ بمُفْلِتٍ ... من النارِ إلا طاهرُ القلبِ مُسْلِمُ

فدينُ زهيرٍ وهو لا شيءَ دينُهُ ... ودينُ أبي سُلْمَى عليَّ مُحَرَّمُ

فلما قَدِمَ رسول الله (ﷺ) المدينة منصَرَفه من الطائف كتب بجيرٌ إلى أخيه: ((إن النبي (ﷺ) يهم بقتل كل من يؤذيه من شعراء المشركين، وإن ابن الزِّبعرى وهُبيرة بن أبي وهب هربا، فإن كان لك في نفسِكَ حاجةٌ فاقدم على رسول الله (ﷺ) فإنه لا يقتُلُ أحداً جاء تائباً، وإن أنت لم تفعل فانجُ إلى نجائك من الأرض))، فلما أتاه كتاب بجير ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجَفَ به من كان حاضرَه، وقالوا: هو مقتولٌ، وأبت مزينة أن تؤويه، فنزَلَ المدينَةَ فقدم على رجل بينَه وبينَه معرفةٌ، ثم أتى رسولَ الله (ﷺ) وكان عليه السلامُ لا يعرفُه، فجلس بين يديه ثم قال: يا رسولَ اللهِ إن كعب بن زهير أتاك تائباً مسلِمَاً، فهل أنتَ قابلٌ منه إن جئتُك به، قال: نعم، قال: أنا كعب، فوثب رجل من الأنصار: قال دعني أضربْ عنقه، فكَفَّه النبيُّ عليه السلامُ عنه، فقال كعب يمدح النبي (ﷺ) :

بانَتْ سُعَادُ فَقَلْبي اليومَ مَتْبُولُ ... متيَّمٌ إثرَهَا لم يُجزَ مَكْبولُ(٢)

وما سُعادُ غَدَاةَ البينِ إذ رَحلُوا ... إلا أغَنُّ غضيضُ الطرْفِ مكْحولُ(٣)

تجلُو عوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ ... كأنَّهُ مُنْهَلٌ بالراحِ معْلولُ(٤)

---

(٢) بانت: فارقت. ومتبول: أصيب بتَبْلٍ، أي تبلت قلبي. مكبول: محتبس عندها.

(٣) الأغن: الذي في صوته غنة. وغضيض الطرف: فاتر الطرف.

(٤) العوارض: الأسنان. والظلم: ماء الأسنان. ومنهل: قد انهل بالخمر. والنهل: أول شربة. ومعلول: قد سقي مرتين.

شُـجَّتْ بـذي شَـبَمٍ مـن مـاءِ مَحْنِيـةٍ صافٍ بأبْطَحَ أضحى وهُو مشْمُولُ(٥)
تجلُـو الريـاحُ القـذى عنـه وأفْرَطَـهُ مـن صـوبِ سـاريةٍ بـيضٌ يَعَاليـلُ(٦)
يـا ويحَهـا خُلَّـةً لـو أنَّهـا صَـدقتْ مَـا وَعَـدتْ أو لـو انَّ النُّصـحَ مقْبـولُ

وقال مادحاً الرسولَ (ﷺ):

يَسْـعَى الوُشـاةُ بجَنْبيهـا وقـولُهُمُ إنَّـك يـا ابـنَ أبـي سُـلْمَى لَمقتـولُ(٧)
وقـالَ كـلُّ خليـلٍ كنـتُ آمُلُـهُ لا أُلفينَّـكَ إنِّـي عنْـكَ مشـغُولَ(٨)
فقلـتُ خلُّـوا طريقـي لا أبَـا لَكُـمُ فكُـلُّ مـا قَـدَّرَ الـرَّحْمَنُ مفْعُـولُ
كـلُّ ابـن أنثـى وإنْ طالـتْ سـلامَتُهُ يومـاً علـى آلَـةٍ حَـدْباءَ مَحْمُـولُ(٩)
أُنْبئـتُ أنَّ رسـولَ اللهِ أوْعَـدَني والعفـوُ عنـدَ رسـولِ الله مـأمولُ
مهـلاً هـداك الـذي أعطـاكَ نافلـةَ الـ ـقرآنِ فيهـا مـواعيظٌ وتفصـيلُ
لا تأخُـذَنِّي بـأقوالِ الوُشـاةِ ولـم أُذنِـبْ ولـو كَثُـرَتْ عنِّـي الأقَاويـلُ
لقـد أقـومُ مَقامـاً لـو يَقُـومُ بـهِ أرى وأسـمَعُ مـا لـو يسـمَعُ الفِيْـلُ(١٠)
لَظَـلَّ يُرعَـدُ إلا أن يكـونَ لَـهُ مِـنَ الرسـول بـإذن الله تنويـل(١١)

---

(٥) شجت: عوليت بالماء وزجت. بذي شبم: بماء ذي برد. والشبم: البرد. والمحنية: ما انحنى من الوادي.

(٦) عنه: يريد: الظلم. وأفرطه: ملأه. وسارية: سحابة تسري فتمطر بالليل. ويقال للغدير: اليعلول.

(٧) الوشاة: الذين يشون الكذب ويزينونه.

(٨) لا ألفينك: لا أكون معك في شيء.

(٩) يريد أنه لا بد أن يحمل على نعش في يوم ما.

(١٠) ولما كان الفيل عندهم ضخما، توهم انه أسمع الأشياء.

(١١) التنويل: من النائل، أي العطاء. والتنويل هنا هو الأمان والعفو.